الكتان عند قدماء المصريين

هذا البحث هو فصل من كتاب « تاريخ الكتان » لمؤلفه و. ج ليجيت ترجمه الى العربية الاستاذ سليم نظيف رئيس فرع الالياف بقسم تربية النباتات

كان الاعتقاد الشائع عند المصريين القدماء ، استنادا إلى المراجع المصرية القديمة أن الكتان هو أول ما خلقته الآلهة لهم قبل أن يظهروا على وجه البسيطة . وقد كان هذا اعتقادا راسخا لديهم وإن كان معروفا أن الكتان من زمن بعيد جدا كان ينمو بريا فى منطقة القوقاز ، ولكنه زرع بأرض مصر لأول مرة فى التاريخ ، فقد عرف أنه استوطن الأرض الخصبة لوادى النيل بشقيه الطويلين الضيقين اللذين تحوطهما تلك الأراضى الجدباء من صحارى أفريقيا الشمالية القديمة السكان ، وكان يشغل جزءا كبيرا من تلك الأراضى الخصبة فى ذلك الوقت البعيد .

وقد ثبت — استنادا لبعض المصادر — أن زراعة وصناعة الكتان نشأتا أول ما نشأتا بمصر ، ولكن فى أية مدة وفى أية جهة منها ؟ هذا ما لم يمكن تحديده . فمؤرخو اليونان متفقون على أن مصر أول بلد عرفت استعمال هذه الألياف الغزلية الهامة ، ويؤيد قولهم هذا أنه فى الوقت الذى كانت فيه مصر تصدر الفائض من كتانها لم تكن اليونان أمة قد عرفت بعد . ويقول بلاينى إن فن الغزل اخترع فى مصر ، كما يعزو ذلك مؤرخ يوناني آخر فى قول أكثر تحديدا ، إلى « بسيمالس المصرى »(١)

ولقد بلغ المصريون القدماء شأوا عظيما فى فن غزل الكتان ، ومنذ هذه الأيام الغابرة استدل على كل ما يتعلق بالكتان فى مصر من مخلفات كل عهد . فأن مصر وان لم تكن هى الأرض التى نشأ فيها الكتان فإنها ولا شك كانت مهده . ففى مصر القديمة ازدهرت صناعة الكتان وأتقنت لدرجة لم تبلغها البلدان الأخرى سواء فى العصر القديم أو الحديث .

وعينات الغزل التى خلفها المصريون توضح لنا المهارة التى كان عليها غزالوهم الأقدمون ، فإن غزل أكثرها يعادل غزل حرير الصين والغزل الدقيق للمنسوجات

(١) Ptheymais the, Egyptian

الهند [١] رغم أن الأنوال والمغازل التى كانوا يستعملونها فى تلك الأيام كانت أدوات بدائية جدا لاتعدو براويز مربعة موضوعة على أربعة حوامل مثبتة فى الأرض . ويبدو أنه لم يكن هناك أى جهاز على تلك الانوال لطى القماش الذى تم غزله بيد أننا نعلم أنه كانت هناك قطع من القماش يزيد عرض القطعة الواحدة منها عن ٦٠ بوصة ويبلغ طولها ٦٠ ياردة واستخدمت كلفافات لمومياء الفراعنة فى ذياك العهد .

ولا تعتبر صناعة الكتان فى مصر — خلال عصور التاريخ الاولى أقدم صناعة بالجملة [٢] عرفت فى تاريخ الانسان . وقد أنشأت مصر مدنيتها المدهشة فى فترة وجيزة ، وأصبحت الجامعة المثالية في زمانها . وفى هذه الايام السابقة الغابرة حينما كان يسود الاعتقاد بأنه يمكن رؤية جميع مسطحات ومياه الدنيا من أعلى قمة جبال الاطلس ، وأن البحر المتوسط أو الاوسط هو حلقة اتصال يابسات الدنيا ، وبينما كانت القبائل الشبه بربرية فى شمال أوربا ، التى لم تكن تعرف حتى أبسط قواعد المعيشة الاولية ـ تجوب الغابات فى تلك الايام — كانت مصر تصنع الاقمشة الكتانية الفائقة الجودة التى لم يمكن التفوق عليها حتى فى الازمنة الحديثة . ويمكننا أن نلم بفن هؤلاء الفنيين القدماء إذا تصورنا أنه فى أكثر مصنوعاتهم الكتانية بلغ عدد خيوط القيام ٥٤٠ خيطا فى البوصة الواحدة بينما لم يزد عدد هذه الخيوط فى أدق كتان غزل بأوربا عن ٣٥٠ خيطاً فى البوصة . وكثيرا ماذكر هيرودوتس غزل الكتان المصرى فى عصره ، كما أن ما كتبه مارشال حوالى سنة ٩٥ بعد الميلاد عن القطع المرسومة من غزل كتان منفيس التى فاقت فى قوة جاذبيتها أقمشة بابليون المشغولة بالابرة [٣] بديع حقا ! كما أن هناك وثيقة مقطوع بصحة أصلها قبل ذلك بخمسمائة عام تتضمن وصفا لقميص من الكتان كان قد أهدى من أماسيس ملك مصر إلى حاكم من حكام ذلك العهد تقول إنه مغزول من قطع عليها رسوم عدد عظيم من الحيوانات المشغولة حوافها بالابرة وموشاة بالذهب ، ونضيف اليه أن كل خيط مع دقته المتناهية يتكون من ٣٦٠ خيطا كلها مختلفة الأشكال . وهنا نرى الطابع الغالب للفن الأسيوى الذى جاء فيما بعد والذى

(١) Cambrics of India
(٢) Mass Industry
(٣) Embroideries of Babylon

نتج عن الغزو المتعاقب لبعض العناصر الشمالية والذى أدخل إلى مصر من الكماليات ما لم تعرفه من قبل. وقد ظهر الغزالون السوريون وقتئذ فى مصر بكثرة كان من أثرها أن الكلمتين « سورى » و « غزال » صارتا مترادفتين .

لقد بنى المصريون القدماء المعابد التى نقلها عنهم اليونانيون بعد ذلك بزمن طويل أثناء ما يسمونه « العصر الذهبى » وكانت نموذجا لمبانى المعابد والمحاكم فى تلك الأيام ونحن ندين للنحوت والرسوم المرسومة على حوائط هذه المعابد ، كما ندين للمخلفات التى استخرجت من مقابر حكام مصر ، فهى سجلات شبه كاملة ومحفوظة جيداً من أعمالهم اليومية ، تصف عمليات زراعة وتحضير وغزل ونسج الكتان عندهم . فعلى حوائط المعابد فى مقابر طيبة تشاهد مجموعات صور كثيرة تمثل نبات الكتان أثناء الإزهار ، وتصور طريقة تحضير الألياف فى العهد الذى كان سيدنا يوسف يسكن مصر فيه ، وتظهر مخلفات المقابر القديمة فن الغزل فى صنع الأقمشة الكتانية البديعة الصنع التى ترجع إلى وقت بعيد جدا[1]. وقد عثر فى قبور أسرة مالكة انتهت حوالى ٣٤٠٠ قبل الميلاد ليس فقط على قطع من غزل الكتان الرفيع جدا ، بل على بقايا حجرية لنول بدائى آفقى الوضع ولكن لم توجد معه بكرته . ومع أنه فى مدى الألف سنة التى أعقبت هذا الوقت لم يعثر فى خلالها على أحد هذه الأنوال المحفوظة إلا أنها كانت حقبة حافلة بنشاط عظيم فى صنع الأقمشة وقد عثر فى أحد الاكتشافات المتأخرة سنة ١٩٢٤ على أقمشة مصنوعة من الكتان أو من الياف تشابهه يرجع إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وكانت تتألف من أصناف مختلفة الغزل ، ومن أقمشة سميكة خشنة ولفائف مومياء متوسطة النعومة ، إلى مصنوعات بلغت من الدقة درجة قد لا يمكن للماكينات الحديثة انتاج مثلها . وقد يمكن الحكم على هذه الأقمشة وغيرها من المصنوعات الغزلية العادية التى يرجع عهدها الى ما قبل عهد الأسرات الفرعونية فى مصر[2] مما هى عليه الآن ، لأنها مثال للفن الذى لم يتغير ماديا مدى عدة قرون ، وإن وجود أنوال الغزل الأولية والإبر العظيمة لسيهم فضلا عما ثبت من إقامتهم الاحتفالات الدينية لدفن موتاهم فى هذا الزمن الغابر ، ليبرهن لنا على أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن الفطرة

(١) Neolithic age (٢) Predynastic period

الأولية . وقد لايكونون هم الذين أوجدوا هذه الحضارة بل لعلهم ورثوها عن أناس أقدم منهم عهدا ، أناس لا يمكن تذكرهم . ففى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد تقريبا كانت تصنع كميات عظيمة من الأقمشة الكتانية العادية وكان بعضها دقيقا جدا كأدق غزل للكتان الذى تصنعه الماكينات الحديثة فى هذه الأيام ، وكان يرتديها ذوو المكانة من المصريين فى الاحتفالات والمناسبات ...

كانت زراعة الكتان وتحضير أليافه وصناعة أقمشته ، فى عهد ما قبل الأسرات الفرعونية فى مصر تتم فى منازل العامة من الناس أو بجوار تلك المنازل ، وكان المصريون زراعيين بطبيعتهم فاهتموا بزراعة الكتان وعملوا منه محصولا رئيسيا عدة قرون . وهم الذين استنبطوا الفكرة الأصلية لنقل المياه للتربة لتشبيعها بها وهى العملية التى نسميها نحن الآن الرى .

وكانت عمليات الزراعة وتحضير الالياف وغزل خيوط الكتان ونسجها لعمل الأقمشة منها ، تجرى عدة قرون من آن لآخر بواسطة النساء ، وكان الرجال الذين بلغوا فيها درجة عظيمة من المهارة يقومون بها أيضا . ولما زار هيرودوتس «أبو التاريخ» مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد دهش من تجارة مصر الكتانية العظيمة ، كما ألقى بعض الضوء على ما كان متبعا من العادات بمصر ، واختلاف ذلك عند الإغريق المعاصرين . وقد ذكر أن عادات المصريين كانت تخالف كل الأمم الاخرى فقال : «جلس الرجال أمام أنوالهم يعملون بينما كانت النساء مشغولات ببيع الاقمشة فى الاسواق» .

وقد حفز هذا القول الشاعر سيفوكلس[1] فكتب فى بعض أشعاره «كأبناء مصر حيث يجلس الرجال إلى أنوالهم وتترك لزوجاتهم أمور العناية بالمنزل» . وعلى كل حال فإن كثيراً من كبار المؤرخين المعول على صدقهم لا يوافقون هيرودوتس على ذلك كل الموافقة .

لقد كانت أعمال هؤلاء الفنانين متقنة جداً لدرجة أن انتشارها تدريجيا فى أرجاء القطر وحدوده المتاخمة للبلاد المجاورة كان خير دعاية لحضارة مصر ، فانهالت الطلبات على هذه المنتجات وكثر انتاج الأقمشة الكتانية المصرية حتى غدت صناعة قومية

(1) Sophocles

عظيمة الشأن بعد أن كانت قاصرة على عمل الخيوط والأقمشة التى تكفى للاستهلاك المحلى ، وانتشرت تجارتها مع الهند وإيران ، ثم بعد ذلك مع اليونان وروما وكان كل ذلك تحت إشراف الحكومة ولحسابها ، وبهذا أصبحت هذه الصناعة شبه احتكار ملكى. وكان يسمح — بترخيص من الحكومة — لبعض مهرة الفنانين بالعمل لحسابهم الخاص ، ولكنهم كانوا يرغمون على بيع منتجاتهم إلى الحكومة بأثمان محددة .

وعلى هذا النظام الجديد المتسع أنشأ الفراعنة « مصانع ملكية كبيرة للغزل والنسج فى طيبه وبانابوليس وممفيس ومدن أخرى، فقد كان عمل الاهلين يكاد ينحصر فى هذه الصناعة ، وكذلك كانت بعض المعابد تمنح امتياز مزاولة هذه الصناعة بها. ولهذا تدرب المصريون على يد كهنتهم على التضامن فى العمل الذى يثمر النجاح العام . وكان من أثر ذلك أن ارتقت هذه الصناعة حتى لقد اشتهر المصريون بأنهم أعظم غزالى الدنيا القديمة . وقد كان إنشاء المصانع الملكية الآنفة الذكر فى الأماكن التى كان يمكن استخدام الأرقاء فيها بكثرة ومع أن تسخير هؤلاء الارقاء فى الانتاج كان يتم بقوة الحكومة ونفوذها فقد كان نجاحا باهرا يشبه إلى حد كبير ما يماثله فى ولايات آزتك وإنكا بأمريكا[١] . وكان الارقاء الذين يستخدمون فى المصانع إما أسرى حرب أو من الاقليات السياسية المضطهدة التى كانت فى مصر اذ ذاك أو من المدينين وكانوا أقل الفئات الذين قبلوا وفاء لديونهم أن يعملوا هم أو أحد أعضاء أسرتهم زمنا معينا[٢] نظير وفاء الدين .

لقد خضع هؤلاء الارقاء صانعو الاقمشة من المصريين القدماء لظروف سيئة جداً لا تتفق وأحوال الرق نفسه ، ويتبين ذلك من سجل مكتوب يفهم منه أن عشرة من العبيد كانوا يقومون بأعمال مرهقة فصاروا الى حالة صحية بالغة السوء من جراء الأتربة ومخلفات الكتان . فقد كانوا يضطرون إلى البقاء فى المصانع الرطبة طوال اليوم دائبين على عملهم بظهور محنية، وكانوا يضربون بقسوة إذا تبين لملاحظ العمل أن انتاجهم اليومى من الغزل أو من الاقمشة غير مرض . ويقال استنادا إلى مرجع قديم أنه « كان يجب رشوة هذا الملاحظ بالخبز اذا ما أراد أحد هؤلاء الارقاء الحصول على

(١) Aztec and Inca States (٢) Term Slavary

إذن بالخروج إلى الهواء الطلق الذى ما كانوا يظفرون به إلا نادرا . وكان عمال الصباغة أكثر شبها بهم . وتقول ورقة بردى قديمة ، كانت أيادى الصباغين تدخن كالسمك المشوى وكانت عيونهم ذابلة . ويعزى ذلك إلى استعمال اليوريا فى الصباغة ، فالاصباغ النباتية كانت كثيرة الاستعمال وفى زمن مبكر حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كانت لدى المصريين الصبغة الحمراء أو الصفراء لاستعمالها فى صباغة الاغطية الخارجية للمومياء كما أنهم استخرجوا اللون الازرق الذى كان لديهم منه أربعة ألوان مختلفة وكذلك اللونين الاحمر والاخضر ، ولم تستعمل هذه الاصباغ المختلفة حتى عهد المملكة الجديدة ، وكان ذلك حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، إذ كانت المملكة القديمة السابقة تفضل اللون الابيض الطبيعى على كل ما عداه من الالوان . ولا توجد أى المراجع التى تدلنا على حالة الرق لهؤلاء الصناع المنكودين ، فلم يكن سوى أهل البلاد من طبقة النبلاء فى مقدورهم إقامة المقابر حتى يمكن الاهتداء إلى شىء عنهم فيما خلفوه لنا ، ولكن الشائع أن اليونانيين كانوا يستخدمون الارقاء فى المنازل لا يبرحونها كما أنه فى روما كان أسرى الحرب يستخدمون كالارقاء فى الاعمال العامة ، ولهذا أدرك المصريون قديما أنه يمكن الانتفاع جيدا بمجهود الرق فى تدعيم الزراعة بجميع أرجاء البلاد . وكان هؤلاء الأرقاء يلبسون لباسا واحدا يتكون من سروال قصير من قماش الكتان الخشن الذى صار لباسهم المعروف ، وقد بقى زيهم هكذا عدة آلاف من السنين فى التاريخ المصرى . وأول وثيقة تاريخية فى العالم لم يتطرق اليها شك فى ذلك هى التى تذكر اسم ماتهان [1] الذى عاش حوالى سنة ٢٩٥٠ قبل الميلاد ، ويستدل منها على أنه عين مراقبا لجميع كتان الملك .

ورغم غزو مصر المتكرر والحروب الدفاعية التى وقعت ، وحكم البلاد الطويل للأمراء الاجانب فقد بقى تعلق المصريين دائما بكتانهم الذى كان مقدساً لديهم ، كما أنهم زادوا إنتاجهم عما يحتاج اليه الاستهلاك المحلى فى فترات السلم . ولم يكن المصريون أهل تجارة لسبب واحد هو عدم ميلهم للملاحة البحرية وكرههم ، لها فى ذلك الوقت الذى كانت تحتاج فيه أية رحلة خارج البلاد إلى ركوب متن البحار ، ولكنهم بواسطة طرق القوافل

---

(١) Mathan

الممتدة على طول سواحل أفريقيا الشمالية الى قرطاجنة اتصلوا بالفينيقيين جيرانهم الشماليين وتبادلوا معهم السلع ،وكان الفينيقيون من أهل البحار ويرجع لمجهـــوداتهم الفضل فى جعل البحر المتوسط مهد التجارة الملاحية وأحد العوامل في ارتقاء المدنية . وقد عرف هؤلاء الفينيقيون صناعة الكتان ولكنهم لم يصطنعوها لقـــلة خبرتهم بالصناعات الزراعية الفنية ولعدم ميلهم إليها ، ولذلك لم يمكنهم محاكاة الفن المصرى فاشتغلوا بنقل تجارة مصر فى البحار مدة قرون . وإليهم وإلى من أعقبهم من أمم الإغريق يرجع الفضل فى نقل المصنوعات الكتانية المصرية إلى فلسطين وبلاد العجم وشبه جزيرة العرب وسوريا واليونان وأجزاء أخرى من الدنيا القديمة وانتشارها فى هذه الأقطار .

وفى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد قام المصريون بوضع مشروع يسهل اتجارهم مع الهند والصين مباشرة،وقد كان يقوم بها الفينقيون منذ حوالى ١٧٠٠ قبل الميلاد فاستخدموا الأرقاء ومعرفتهم لفن الرى فى شق ترع ضيقة تصل البحر الأحمر بالنيل، وبهذا سبقوا قنال السويس بما يقرب من ٣٠٠٠ سنة .

وحتى قبل سنة ١٣٢٥ قبل الميلاد كانت خيوط غزل الكتان والأقمشة الكتانية الدقيقة الغزل المصنوعة فى مصر ذات مكانة رفيعة جدا فى الدنيا القديمة ، وكان الإقبال عليها شديداً فى البلاد الآسيوية وبلاد البحر المتوسط وكانت تؤخذ أيضا كميات عظيمة من الغزل والأقمشة الكتانية غير المصنوعة إلى تيرا (١) حيث تصبغ بالصبغة التيرية الغالية . فاشتهرت باسم « الكتان الدقيق ذو اللون القرنفلى » وبأنها من صنع اليهود وبعض سكان آسيا الغربية كما كانت رمزا للأبهة الملكية فى عصر حكم الملك سليمان المملوء بالكماليات ، وقد اتخذت روما وبيزنطه فيما بعد هذا القماش الملون للاستعمال الملكى وأعلت من شأن هذه التسمية فأطلقت عليه «المصنوع للجنس القرنفلى» أما الأمم الغربية فلم يكن بها منافس لهذه الصناعة المفيدة وهى صناعة الأقمشة الكتانية المصرية،وقد تكلم هيرودوتس عن تصدير كل من الخيوط والأقمشـــة إلى منطقة البحر

(١) Tyre

المتوسط من ميناء أصبحت فيما بعد ميناء الاسكندرية التى كانت فى وقت من الأوقات ثانى مدينة عظيمة فى الامبراطورية الرومانية .

لقد احتفظ الكتان حقبا طويلة بمكانته كأهم المنسوجات ذات الأصل النباتى وكانت مصر أهم منتج له فى الأسواق العالمية حتى القرن الرابع عشر وبقى إلى القرن الثامن عشر وهو ما تزال له الأهمية التى ظفر بها القطن فى عصرنا الحاضر .

وخلافا لما كان متبعا من العادات فى اليونان والهند كانت الديانة فى مصر هى محور الحياة المصرية ويستدل على تعمق المصريين القدماء فى اعتقاداتهم الدينية من هذه الأقمشة الكتانية البديعة الصنع المصنوعة خصيصاً لمعابدهم ومقابرهم التى يرجع بعضها إلى حوالى ١٣٥٠ قبل الميلاد أثناء حكم الملك رمسيس الأول . وقد وجدت هذه المنسوجات الكتانية فى حالة جيدة جدا وربما يعزى ذلك إلى عدم وجود نسبة الرطوبة العالية فى الجو المحيط بهذه الأقمشة ، هذه النسبة التى لم تتغير على مر الزمان مدى آلاف السنين . ومن الطريف أنه لم يوجد أى أثر لمخلفات أقمشة صوفية فى أية مقبرة مصرية قبل الغزوات السابقة . فلقد كان الاعتقاد فى خلود الجسد فى المقبرة حجر الزاوية فى المعتقدات الدينية المصرية ، يؤيد ذلك طريقة دفنهم لموتاهم . وقد كان بديهيا جدا لديهم الاعتقاد باستمرار الحياة بعد الموت حتى انهم كانوا يعتقدون أنه لا يمكن لأى روح راحلة أن تدخل ميناء إيزوريس [١] من غير الجسد الذى كانت تسكنه فى حياة هذا الجسد على الأرض . وقد اعتقدوا كذلك أن الشخص الذى يموت يظل محتاجا للأشياء التى كان يستعملها فى حياته فكانت تحاط الجثة بعد الممات بالنباتات العطرية ثم توضع فى محلول من النطرون ثم تملأ من المحلول النباتى الخاص [٢] وبهذا تتحول إلى مومياء [٣] وهى الكلمة المشتقة من الأصل العجمى موماى [٤] فاذا تمت هذه الإجراءات تلف المومياء بحوالى ثلثمائة ياردة من الأقمشة الكتانية المصنوعة لهذا الغرض خاصة وذات الأسماك المختلفة كما كانت لفائف جثة الفرعون لا تقل عن ألف ياردة وذات ٤٠ سمكا ولازال كثير من هذه الأقمشة القديمة فى حالة متوسطة رغم أن بعضها يحمل الدليل على أنه يرجع عهده إلى ٤٥٠٠ سنة مضت . وكانت تتناسب

(١) Osiris (٢) Pitch (٣) Mummy (٤) Mumai

درجة أقمشة هذه اللفائف مع مكانة الشخص الراحل وأغلبها كانت أقمشة دقيقة جداً كتلك التى وجدت فى مقبرة بمنفيس تحتوى البوصة من قماشها على ٣٨٠ خيطا ولم توجد بها أى عقدة أو كسر أثناء تعريضها لجهاز الاختبار الضوئى الخاص . وقد اعتاد علماء الآثار أن يقدروا مكانة المصرى القديم الراحل من قيمة هذه اللفائف والأغطية الكتانية ، إذ كان هناك فارق كبير فى درجات غزلها . فقد كان بعض لفائفها من كتان مصر الفائق (١) الذى كان يستعمل لطبقة النبلاء والكهنة والذى يضارع أبدع وأغلى الأقمشة الكتانية الحديثة، كما كان بعضها الذى يرجع عهده إلى القرن العاشر قبل الميلاد يتألف من أقمشة أولية رفيعة مصنوعة من الخيوط الكتانية وبعضها الآخر كان يصنع بمهارة كذلك إلا أنه خشن الملمس كقلاع المراكب ، ويدل ذلك على ضآلة منزلة الشخص. ومما يذكر أنه كان يسمح فى بعض الأحيان لفقراء العامة بأن يلبسوا الأقمشة القطنية مدة حياتهم على شرط استعمال الأقمشة الكتانية فى لفافات مومياتهم . ومع ان أقمشة الدفن كانت عادة بيضاء نظراً لتمسك المصريين بالنظافة فإن القطع الصغيرة الباقية من الأقمشة الكتانية المطبوعة بالألوان التى وجدت فى مقابر ترجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة والثامنة عشرة دلت على معرفة المصريين لهذا النوع من الاقمشة، ولكن ليس لدينا ما يقطع بأن عملية طبع هذا القماش كانت تصنع وكل ما يقال فى هذا الصدد أن مصر كانت ذات صلة تجارية مع الهند والبلاد التى نشأ بها تلوين أقمشة النسيج. وقد كان استعمال المصريين للأقمشة الكتانية بكميات هائلة فى دفن موتاهم لأن اليافه تنتج من المنطقة الداخلية لنبات الكتان، ولأن هذه الالياف أكثر نقاوة وأقل تعرضا للتلف من سائر الالياف الاخرى. وهذا يدل على قوة اعتقادهم فى خلود النفس، ولهذا نشأت وقويت الصلة بين الكتان والمراسم الدينية، فقد كانت اليافه فى عقيدتهم هى التى تصلح للخلود كما أنه استعمال الاقمشة الحيوانية فى أعمال الدفن كان محرما لأنهم كانوا يعتقدون أن فراء الغنم كثيرة التعرض للإصابة بالديدان التى بدورها قد تضر بالمومياء . وهذا الاعتقاد يؤيده عدم وجود أى أثر للصوف فى المقابر المصرية وليس هذا فحسب ، بل انه حتى القرن الثامن بعد الميلاد لم يستعمل كذلك القطن

(١) The fine linen of Egypt

الحرير فى أعمال الدفن . وقد اتخذت الاجراءات وأقيمت الاحتفالات الدينية لدفن سيدنا يوسف ووالده يعقوب بمصر ، ولكنهما نقلا فيما بعد من مصر إلى مقبرة آبائهم التقليدية ، وكانت أقمشة الدفن تهدى عادة من الاصدقاء المقربين كما كان شرفا عظيما أن يهدى أحد الحكام قطعة من الاقمشة الكتانية تصرف من بيت الفضة أو من الخزانة العامة للملكة القديمة فى منفيس للف جثة أحد المقربين فى حياتهم إلى الفرعون . ومن الصعب تقدير الكميات التى استهلكت على مر العصور من الاقمشة الكتانية فى أعمال دفن الموتى من الانسان والحيوان . وقد قيل ان العرب أثناء حكمهم لمصر اتخذوا المومياات المصرية للوقود زمنا يربو على قرنين من الزمان ، وصنعوا من أجود الاقمشة الكتانية ملابس لهم ، كما باعوا بقية الاقمشة الأخرى إلى بائعى العطور وتجار الأغذية لاستخدامها فى صناعة الورق ، وكانت توضع الجثة بعد إتمام المراسم والاجراءات الأولية الآنفة الذكر فى مقبرة تعتبر سكنا لروح الراحل ، وكان يوضع بها نول للنسج حتى يمكن - حسب اعتقادهم - للشخص الراحل أن يستعمله فى عمل منسوجات لنفسه فى الدنيا التالية . وقد وجدت فى مقبرة واحدة أو مقبرتين رسوم تخطيطية على الحوائط تمثل الشخص الراحل يقوم بهذا العمل فعلا وكانت هذه المقابر تبنى بحجم كبير عادة وتحفى بعناية حتى لا يزعج الشخص الذى بها أبدا ، كما كان أكثر هذه المقابر ينحت فى الصخور على حواف الصحراء ، وكان للأزياء عند القدماء اعتبار دينى كبير . ومنذ الماضى السحيق ومنذ التصميم الأول للمعبودات الشبيهة بآلهتهم التى رغم أنها كانت تحاكى رءوس حيوانات أو طيور على أجسام بشرية فقد كانت تتقدم إلى أهل العبادة بين العطايا التى أجزلت لهم . ولحين انتهاء عهد الأسرات الفرعونية المصرية كان الباس هيا كل الآلهة بملابس كل صباح عند بزوغ الشمس تقليدا دينيا ، ففى احتفال دينى مقدس كانت تفتح أبواب المعبد ، وبعد ازالة الملابس التى كانت قد اقتبست للآلهة فى اليوم السابق كان يوضع بدلها لباس من الكتان الأبيض على كل إله ، وكان يوضع فوقه بتأثير العادات السامية فيما بعد «لباسه العظيم» وبعد ذلك كان يقوم الكهنة فى خشوع بوضع حرز مقدس على كل إله ، وكان هذا الحرز الدينى المقدس يتألف من ست خصلات من الكتان : اثنتان منها حمراوان واثنتان خضراوان واثنتان بيضاوان

ولا يوجد ثمة مرجع تاريخى يوضح المغزى والدلالة الدينية لهذه الألوان ، وكانوا إذا تولى فرعون جديد على العرش وتغيرت الديانة تبعا لذلك ألبسوا الآلهة المبعدة بدل الحلل البيضاء حللا ملونة ، وكان هذا التلوين رمزا لعدم احترام الآلهة المبعدة .

وقد كتب أبيوليوس [١] النوميدى الذى تلقى العلم فى قرطاجنة وأثينا عن الكتان حوالى سنة ١٧٠ بعد الميلاد فى لهجة دينية قال « هل يمكن لأى شخص على جانب من المعرفة بالدين أن يتعجب من هذا الرجل الذى صار على علم بكثير من أسرار الآلهة فصار يحتفظ لنفسه فى منزله برموز خاصة لها يغطيها بالأقمشة الكتانية التى يعتبرها أطهر الأغطية للآلهة السماوية . وقد كان نراء الصوف الذى يؤخذ من أجساد الغنم يعتبر لباسا دنسا منذ عهد مذاهب أورفيوس وفيثاغورث [٢] ولكن الكتان وهو أنظف وأجود منتجات الحقل لم يكن استعماله قاصرا على الألبسة الداخلية والخارجية للكهنة المطهرين من المصريين ، بل كان أطهر الأغطية للآلهة المقدسين .

لقد أكد هيرودوتس القول بأنه ما كان يسمح للكهنة المصريين بلبس أى لباس آخر سوى الكتان الأبيض التى حين قيامهم بواجباتهم الدينية ، لأن هذه الملابس الكتانية كانت رمزا لـ « ملابس الآلهة » وقد قال أيضا بلوطارش [٣] « لقد لبس كهنة ايزيس الكتان لنقاوته » وأشار بلاينى [٤] إلى ذلك فى دعابة بقوله « ومع أن الكهنة كانوا يلبسون الكتان إلا أنهم كانوا يفضلون القطن » ولعل ترجمة مخطوطات حجر رشيد تدعم قوله حين تذكر « الملابس القطنية الخاصة بالاستعمال فى المعابد » وقد يعزى هذا الاختلاط إلى الترجمة من اللغة الأصلية إلى اللغة اللاتينية ، اذ المقصود بكلمة كتان [٥] أصلا فى كلا اللغتين اليونانية واللاتينية هو قطع الأقمشة الكتانية التى تم نسجها وليست أية الياف غير طبيعية أخرى معينة ، فضلا عن ذلك فقد كانت روما تستورد المصنوعات القطنية الدقيقة من بلاد العرب والهند . ويقول أحد علماء الحضارة المصرية القديمة إن ملابس الكهنة الداخلية كانت من الكتان ، ويحتمل أنهم كانوا يلبسون فوقها لباسا

---

(١) Apuleins (٢) Orphens and Pythagoras
(٣) Plutarch (٤) Pliny (٥) Linen

خارجيا من القطن ، وأن هذه الأخيرة كانت تقلع وتترك خارج المعبد حين يدخله الكاهن للقيام بالواجبات الدينية .

وقد اعتبر الانسان الكتان على مر العصور كرمز للطهارة واستعملت منسوجاته أكثر الأمم المتمدينة على أنه الألياف الوحيدة اللائقة للاحتفالات الدينية ، وكان هذا الاستعمال شائعا لدى كهنة اليهود والاغريق والرومانيين وما زال الكتان فى أيامنا هذه يبدو فى المراسم الدينية للدول المسيحية . وقد انبعث من عاديات مصر القديمة معالم اتخاذ الكتان كلباس للرجل العادى ، وكان الزى الذى ساد مدة طويلة فى مصر الوسطى مكونا من قطعة من الكتان تغطى منطقة الخصر . وكان الملك والرعية سواء فى هذا الزى . ولكن الملك كان يمتاز فقط بذيل الأسد يمتد من مؤخر زيه .

وظل هذا الزى يتقدم ببطء شديد وإن كان النموذج الأصلى له ظل جامدا فى حين كان ممكنا تعديله تعديلا واضحا ليس فى الهندام فحسب ، بل فى طول القماش وعرضه كذلك . ذلك أن ثبات جو مصر على وتيرة واحدة لم يكن يدعو إلى تغيير هذا النوع من اللباس ولكنه على مر العصور تطورت هذه الملابس تدريجيا وصارت أشبه بسراويل قصيرة تلف حول الوسط من اليمين إلى الشمال وتتدلى من الأمام إلى ما تحت الركبة . وقد لبس الفرعون هذا الزى ولكن الملكة كانت تبدو فى حلة مكونة من سروال خفيف من الكتان الدقيق الغزل يعلوه قميص أو سترة من الكتان أيضا . ولبست طائفة النبلاء كذلك زى الفرعون تقريبا ، ولكنهم حرصوا على عدم لبس الأقمشة الدقيقة الغزل جدا التى تستعملها الأسرة المالكة .

وتحول الزى المشار اليه بعد ذلك إلى زى دائرى من قماش الكتان المقوى الذى كان يبدو مرتفعا عن الجسم على شكل حشو مثلث الزوايا يختلف فى الطول وعدد الطيات . وأول ما اتخذ هذا الزى فى مصر القديمة حيث غطى الجزء الأسفل من الجسم وترك الجزء العلوى عاريا ، وكان يدل على أن لابسه ليس من طبقة العامة . وقد اقتبست اليونان وروما هذا الزى فيما بعد وأضافوا اليه تغطية الجزء العلوى من الجسم .

واتخذ المسنون من الرجال المتقاعدين عن العمل هذا الزى ذاته ، ولكنهم كانوا يصنعونه من القماش الخشن .

ولما اختلط الساميون بالمصريين حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد تغير الزى المصرى فانتشر استعمال زى خاص كان يتألف من «تنوره» أو «جونيلا» قصيرة مثلثة الشكل من الكتان تلبس فوق الخصر. وساد بين النساء والرجال منهم الذين لا يسترون الجزء الأعلى من أجسامهم من قبل زى يتكون من حلة طويلة فضفاضة تمتد من الرقبة الى أسفل الساق وتثبت على الجسم بمنطقة أو بحزام. فإذا كان لابس الزى من أكابر الموظفين كان له الحق فى لبس لباس آخر من القماش يلف حول الوسط ويشبه ذلك الذى يتمنطق به الملك، إلا أن الحلة الخارجية التى يلبسها كانت مصنوعة من قماش كتانى دقيق شفاف، وبهذا كان الاختلاف ملحوظا للجميع، على أن هذا اللباس الشفاف انتشر انتشارا سريعا وصار الزى المتبع. أما باقى الطبقات الأخرى من العامة فقد ظلت تلبس هذه الجونيلا من القماش الخشن دون لبس الحلة الخارجية المعتادة، كما كانت تلبس نساؤهم سروالا من نفس القماش الخشن. وكان الساميون الغزاة الذين أدخلوا هذا الزى إلى مصر يلبسون لباسا يغطى كل الجسم، اذ كان أهل ميزوبوتاميا أكثر وضوحا فى معتقداتهم الدينية من أهل مصر، مع أنهم كانوا من نفس الجنس الذى نشأ منه أهل مصر القدماء.

وقد نشأ عن هذا الاتجاه الجديد فى صنع الأزياء بمصر الوسطى ارتقاء فى تصميم الحلل وقطع الأقمشة الكتانية المختلفة النسج والنعومة. فالفراعنة وأعضاء حاشيتهم كانوا يلبسون حللا جميلة من قماش الكتان الأبيض البديع الصنع كانت تثنى من الكتف إلى الساق. وقد عثر على بقايا قطع من الأقمشة التى يرجع عهدها إلى الأسرة الأولى الفرعونية من درجة فائقة بعضها شفاف جدا إلى درجة أن السراويل كانت تصنع من طبقتين أو كانت تلبس ملابس داخلية بسيطة تحت الملابس الخارجية التى كانت بطول الركبة وتلف حول منطقة الخصر. ونظرا لأن أحسن كتان كان بمصر فإن أبدع الآثار القديمة الكتانية كانت من كتان مصر ونسج مصر. وقد أوضح لنا علماء الحضارة المصرية القديمة أنه فى عهد الأسرة السادسة كانت حلل الملك الكتانية وحلل النبلاء والكهنة مصنوعة من نسيج رقيق جدا إلى حد أنه كان يمكن إمرارها خلال فراغ خاتم صغير لليد، كما كانت بعض القطع الكتانية دقيقة جدا إلى حد أنها سميت

بهذه التسمية الطريفة « الهواء المغزول » وقد وجدت على ظهر العرش فى مقبرة توت عنخ آمون صورة تبدو منها ملكته فى حلة من هذه الحلل التى تشبه نسيج العنكبوت المصنوع قبل عهدها بمئات السنين . وكانت هذه الأقمشة الكتانية الدقيقة الغزل تظهر ثنايا الجسم إظهارا رائعا، وكان المصريون الذين كان لهم ذوق عال فى توافق التقاطيع يقدرون هذه الحلل التى تظهر جمال الجسم حق قدرها ، ولهذا كان اقبالهم على الأقمشة الكتانية الفاخرة النسج عظيما .

وكان المصريون القدماء مولعين بإقامة الولائم وإحياء الليالى تقيمها الراقصات والمغنيات اللائى كن لا يلبسن أكثر من حزام من نسيج الكتان البديع الصنع ، وكان عدم وجود الرسوم التصميمية لجميع الأقمشة الكتانية القديمة لايدل على عدم عنايتهم بالألوان،لأن الرسوم التصميمية وعمل النماذج هما الخطوتان الأساسيتان لاستعمال الألوان . ولعل هذا يوضح السبب فى أن المصريين حتى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد لم يلبسوا إلا الأقمشة الكتانية البيضاء أو ذات الألوان الطبيعية . ويمكن القول بأن الكتان الذى كان سهل التبييض لديهم لم يكن تلوينه سهلا. ومهما يكن فقد كانت الحلل الكتانية القديمة مصنوعة من أدق الأنسجة ومزينة بحواف أخرى مغزولة ، وكانت الحواف إما أن تحاك وإما أن تغزل مع الحلة نفسها ومع أن التلوين وتصميم الرسومات اللذين امتازت بهما الأقمشة الكتانية المصرية ظهرا فى عصور متأخرة فإنهما يدلان على مابلغه المصريون من تفوق وعلو كعب فى الصباغة والطباعة والغزل . وقد كانت معارفهم عن صباغة الكتان قليلة ، ولكنها ازدهرت حين اتصلوا ببلاد العجم والهند ، وأخذوا عنهما هذه الصناعة ، وكانوا قبل ذلك يطرحون الزخرفة والتزين ولكنهم بعد أن أدخلت لديهم علا كعبهم فى عمل التصميمات والألوان والتلوين .ويجب أن يكون مفهوما أنه خلافا لما كان متبعا فى فن الغزل فى ميزوبوتاميا وبلاد العجم تمشيا مع فن التلوين والتصميم فى الصين وقتذاك لم يكن فن الزخرفة المصرية مقصودا منه لفت الأنظار فحسب، وانما كان يتضمن رموزا ذات معان دينية عميقة تستوى فى ذلك الرسوم التى قد تبدو لأول وهلة أنها زخرفية المظهر وغيرها من الرسوم .